الخطاب: زئبقية المفهوم وتنصّل المعنى

أ. فطيمة الزهرة حفري.
جامعة بسكرة –الجزائر

ملخص:

اشتغلت الدراسات العربية والأجنبية في الآونة الأخيرة على الخطاب بصفة متباينة ، ولقد أكد هذا التباين عديد الباحثين في هذا المجال. فمنهم من جعله مصطلح عربي متخذا إرهاصاته في ذلك في حين نجد أن بعض الباحثين جعلوه مصطلحا أجنبيا صرفا معللين عن ذلك بالرجوع إلى أمهات الكتب الأجنبية التي تناولت الخطاب في حدوده المختلفة.

ولا يزال الخطاب (Discours) يستلهم قريحة النقاد والطليعة واء على المستوى التنظيري

أو التطبيقي وهذا ما أردنا أن نقف عنده في هذا المقال.

Résumé :

Les études arabes et étrangères ont travaillé récemment sur le discours d'une façon différente, et cette différence a été confirmé par de nombreux chercheurs dans ce domaine. Certains d'entre eux l'ont considéré comme un terme arabe, d'autres comme un terme typiquement étranger, en se référant aux livres de référence étrangers qui traitent le discours dans ses diverses définitions. Le discours inspire encore les critiques Tant sur le plan théorique ou pratique et c'est ce que nous voulons préciser dans cet article.

ما زال الخطاب (Discours) يستلهم قريحة النقاد، سواء على المستوى التنظيري أو التطبيقي، فأخذ يستميل جل اهتماماتهم، ويشغل عظيم تفكيرهم، فالخطاب مسمى قديم، فأول من كتب عن الخطاب الشفاهي هم اليونان، بل

هم مستنبطو قواعده، ومشيدو أركانه، ومقيمو ببنيانه، وذلك لأن« أهل أثينا قويت فيهم رغبة القول، واشتدت فيهم داعيته، إذ صار يأسرهم القول البليغ دون سواه، وكانت تقتضي شريعة البلاد أن يتكلم صاحب القضية بالذات، ومن ثمّ اقتضت الضرورة أن يلتمس العامّة الفصاحة في خطيب يوكلون له مهمة الدّفاع وإذا تعذّر ذلك أمرهم بحفظ الخطاب كاملا ليلونه في مجلس القضاء »[1]حتى يستلان حكم القاضي.

إلا أن هذا المسمى استعير لمصطلح حديث، اشتغلت عليه البحوث والدراسات، ومن هنا اكتسب " الخطاب" دلالات عديدة تتناسب مع الحقل الثقافي الذي ينشأ فيه، فيغدو تجسيدا لكثير من المعاني القارة في الذهن، والتي أوردتها معظم المعاجم العربية والغربية، ولكي نتمكن من تحديد مفهوم الخطاب بشكل دقيق، علينا الرجوع إلى جذوره اللغوية، ودلالاته المعجمية.

وهذا ما ألفيناه في القاموس المحيط، إذ تحيل المادة المعجمية (خطب) إلى عدد هائل من الحالات. فـ (الخطب) الأمر العظيم، والأمر الذي تقع فيه المخاطبة، ومنه قولهم(حل الخطب)، وجمعه (خطوب)، و(الخطبة) بكسر الخاء، طلب الزواج من الولي، و (الخطبة) بضم الخاء، الكلام المنثور الذي يتبناه الخطيب، وقد يقترن الخطاب بقرينة كقول الله تعالى« وفصل الخطاب» أي الحكم. [2]

أما الخطاب عند ابن منظور فقد ورد بصيغ مختلفة فهو من (خطب) يقال خطب فلان إلى فلان فخطبه وأخطبه أي أجابه، والخطاب والمخاطبة: مراجعة الكلام، وقد خاطبه بالكلام مخاطبة وخطابا وهما يتخاطبان، والخطب مثل الرسالة التي لها أول ولها آخر، والخطب: الأمر الذي تقع فيه المخاطبة والشأن والحال. [3]

كما جاء بلفظ " الخطاب " عند الزمخشري في أساس البلاغة بمعنى: المواجهة بالكلام فيقال خطب وخاطبه أي أحسن الخطاب، وهو المواجهة

بالكلام. [4] وهي دلالة معجمية تقترب من الذي قصد إليه ابن فارس في مقاييس اللغة إذ يعني الخطاب عنده :« كلام متبادل بين اثنين». [5] مثلما ترددت لفظة الخطاب في المعاجم ترددت في مصادر أخرى ولعل أهمها القرآن الكريم، إذ وردت اللفظة بصيغ متباينة.فمرة بصيغة الفعل في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴾.*

ووردت بصيغة المصدر مرة أخرى في قوله تعالى: ﴿ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴾ * وقوله أيضا : ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ ﴾.* وهي دلالات اختلفت من مقام إلى مقام آخر.

وإن دلت على شيء، فإنما تدل على اكتناز اللفظ بالكثير من الدلالات. وكان لزاما هنا ان نستحضر الخطاب في صورته المعجمية الأجنبية، فإذا أخذنا بالمعجم الرائد في اللغة الفرنسية لوجدنا أن " الخطاب" يعني « النماء اللغوي اللفظي الموجه للجمهور ومراجعة الكلام سواء داخلي أو خارجي، ويعني، طريقة إيصال الرأي والتأثير في المتلقى الفطن»[6] أما الخطاب في المعجم الانجليزي الشهير Oxford، فقد حضي بالتعدد، إذ ورد بالمعاني الآتية:

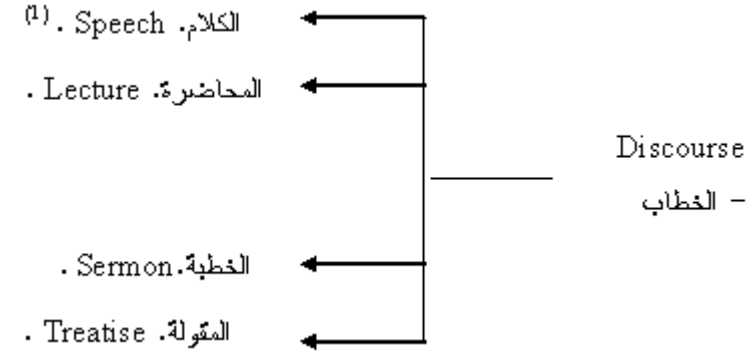

يتفطّن الباحث في مجال الأدب عامة والنقد خاصة إلى كثرة المعاجم العربية والغربية، التي نقبت عن أصول لفظة الخطاب: وما سبق من

الدلالات اللغوية للمادة المعجمية " خطب" يثبت ما ذكرنا. وعليه نخلص بالقول أن المعاجم على اختلافها إلا أنها تضمنت. دلالات رئيسة وضرورة شرطية لتوافر الخطاب، وهما المخاطب والمخاطب. والذي يمكن الإشارة إليه في هذا المقام أن استحضار اللفظ لا يتوقفّ في هذه الدراسة عند حدود المادة المعجمية بل يتعدّاه إلى تعريفات يقينية ومفاهيم متباينة تثبت الخطاب بمعنى موجه يقتضي تحقيق صيغة.

الخطاب عند العرب:

إذا كانت المعاجم العربية والغربية قد وقفت عند اشتقاقات مادة " خطب" ، فإن الدراسات الحديثة تجاوزت الدلالة الاشتقاقية إلى مفاهيم قديمة، حديثة ومعاصرة، وبما أن " الخطاب " لبس لم تنته وتيرته منذ الأزل، ارتأينا أن نشير إلى تلك الإحالات العربية القديمة " للخطاب " لما لها أهمية راسخة القدم.

إنه مصطلح عرف الكثير من المفاهيم عند العرب« فلقد اهتم به علماء الكلام، وعلماء الأصول»[7] على أنه جنس من الكلام« يقع به التخاطب سواء كان شفهيا أم كتابيا».[8] ولقد أدرك العرب ولاسيما القدماء منهم الأهمية العظمى لهذا المصطلح، فعقدوا بشأنه آراء تتقارب تارة، وتتباعد تارة أخرى. ولعل هذا ما نثبته لاحقا.

لقد لامس النحاة أطراف الخطاب منذ القديم فحددوا«أنت» ضميرا للخطاب، وكاف « الخطاب» التي لا محل لها من الإعراب. في حين أفاد المصطلح من الجاحظ عندما نوه، إلى ذلك الشرك الذي أقام عملية التخاطب، وهو ضرورة الإقناع بأنه: « نظام مقنع أو نظام القول أو الفعل العقلي القائم على الحجة والدليل».[9] وقد أضاف ابن خلدون إلى ضرورة الإقناع بالحجة شرطا آخر وهو توخي المقصدية. «إن العلم الذي تخصص فيه علماء العربية، في تحليل الخطاب انطلاقا من علاقته بالسياق هو علم المعاني، هذا

العلم الحادث في الملة بعد العربية واللغة، وهو من العلوم الإنسانية كأنه متعلق بالألفاظ وما تفيده»[10]. لم يتوان ابن خلدون في جعل الخطاب مصطلحا مضمرا، تضمنته علوم العربية وفق معطيات لغوية.

أما أبو حامد الغزالي، فتناول الخطاب بالنظر إلى أحد طرفيه وهو المخاطب، واشترط فيه ضرورة ثالثة، وهي الصدق فقال:« أعلم أن الكذب ليس حراما لعينه، بل لما فيه ضرر على المخاطب أو على غيره».[11] وهكذا ألح الإمام على المخاطب قول الحقيقة كما هي موجودة في الواقع، أو كما يتصورها المتكلم انطلاقا من إدراكه للواقع. وبعد هذه الإحالات القديمة، أضحى " الخطاب " لفظا عربيا أصيلا ومعطى تبنته اللسانيات والنقد الأدبي. فاستحال إلى أكثر المفاهيم ترددا على ألسنة المحاضرين، وأقلام المحللين حين يتعرضون للنصوص الأدبية بالمعالجة، ومن ثم توسع المعاصرون في هذا المفهوم وانتشر لديهم بسرعة مذهلة، ولعل أبرز الباحثين العرب الذين خاضوا تشعبات « الخطاب» وأبعاده المفهومية هو« عبد الملك مرتاض»[12] .إذ اعتبر الخطاب « من المصطلحات اللسانية الحديثة: معادلا للمصطلح الأجنبي (Discours) في اللغة الفرنسية Discourst) في الانجليزية و (Discuro) في الاسبانية»[13] إذ يرى عبد الملك مرتاض بأن النص أضيق من دلالة الخطاب ويعلل ذلك بقوله:« أن النص يطلق على وحدة محددة من الكلام الأدبي، مثل قولك: نص القصيدة، في حين أن الخطاب يشمل مجموعة من الكتابات الشعرية ولذلك تقول: الخطاب الشعري عليه شبكة سردية من النصوص الموكول إليها سرد حكايات مختلفة مجتمعة عبر شبكة سردية متواشجة مترابطة تجمعها حكاية واحدة كبيرة».[14]إذ قصد بهذا التعريف أن الخطاب بنية ذهنية مجردة تحوي مجموعة من الكتابات شريطة التواشح السردي. وهو ما انساق إليه رشيد بن مالك حيث جعل الخطاب « ملفوظ سردي يمكننا، الانتقال من الصعيد العميق إلى الصعيد السطحي».[15] فتحقق

الصيغة الشكلية وفقا لمضمون خطابي معين. ليتضح هذا المضمون من خلال وجهتين:« داخلية تراعي العلاقات والأنظمة والعلامات، وخارجية تدرس علاقة هذه البنية بالأطر الاجتماعية والنفسية التي تولد عنها»[16] الخطاب.

أما جوزيف كورتيس فعرّف الخطاب كونه ذلك «الملفوظ التعاقدي يقع بين مرسل ومرسل إليه».[17] وقد تبعه في ذلك عبد الله إبراهيم الذي نظر للخطاب على أنه «دائرة الأداء الشفهي، الذي هو شكل من أشكال الكلام»[18] إذ يقر في هذا السياق بأن الخطاب ينحصر في الأداء الشفهي للمتكلم، ويصرح بوجود تلازم دلالي بين الكلام والخطاب.

لقد خضع مفهوم الخطاب (Discours) لمجموعة من التحديدات النظرية الأخرى، فطرحت تباينا مع سابقيها.

فهذا عبد المجيد نوسي يذهب في تعريفه إلى عكس ما أكد عليه رشيد بن مالك تماما إذ يجعل الخطاب« فعل تركيبي ينتج عن التحويل من المستوى التركيبي السطحي إلى مستوى عميق».[19]

وزاد التباين في تعريف الخطاب أكثر من قبل عندما أصر كل من "العباس عبدوش" و"راوية يحياوي" بأن تعريف الخطاب يندرج ضمن بنية ذهنية يسعى المخاطب تلبيسها محتوى معين أثناء تصريحهما بأن الخطاب هو:«الطريقة التي بها تتشكل الجمل مكونة نظاما متتابعا، تسهم في تشكيل نسق كلي المعايير، ومتحد الخواص»[20]. وزاد إصرار تباين «الخطاب» عندما وافق سعيد يقطين هذا التعريف تماما ورأى بأن الخطاب هو«الطريقة التي تقدم بها الحكاية»[21] كمحتوى أو مضمون خطابي أو من حيث هي خطاب« لها واهب تصدر عنه ومرسل إليه يمثل مآلها، ولا تخلو من راو ومستمع و قارئ».[22]

إن اعتبار الخطاب بنية ذهنية أو طريقة نظامية، فكرة يسعى عبد الواسع الحميري إلى طرحها في جميع كتبه ولعل أبرزها كتابه الموسوم بـ« مـا

الخطاب ؟ وكيف نحلله؟». وعليه يرى عبد الواسع الحميري أن الخطـــاب: «استراتيجية التلفظ، أي أنه نظام مركب من عدد من الأنظمـــة التوجيهيـــة والتركيبية والدلالية والوظيفية (النفعية)، التي تتوارى وتتقاطع جزئيا أو كليا في ما بينها».[23]

ولم يتوقف في تعريف الخطاب عند كونه استراتيجية أي نظام مركب، بل راح يفصل في عناصر هذا النظام ويمكن للخطاطة أن تجمل هذا التفصيل:

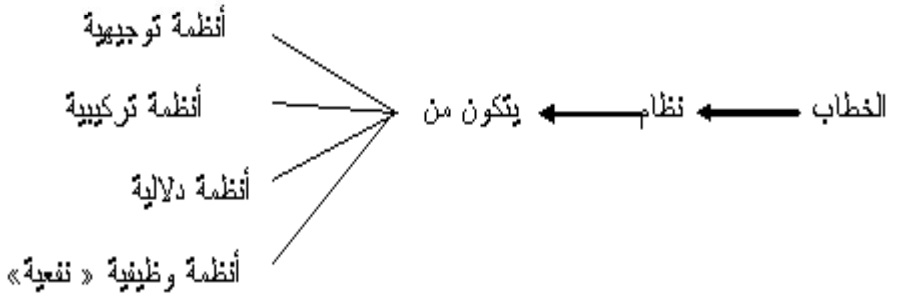

أما "حميد لحميداني" فقد أثار تسمية الخطاب بطريقة الكتابة وهو « الحيز الذي تشغله الكتابة ذاتها، باعتبارها أحرفا طباعية على مسافة الـــورق».[24] وما نخلص إليه أن "لحميداني" اشترط في تحقيقه لمفهوم الخطاب النقل الآلي للبنية المجردة إلى حيّز انطباعي يشهد بميلاد هذه البنية.

في حين أن ما ذهبت إليه "يمنى العيد" فهو مختلف تماما عن سابقتيها من التعاريف فأخذت تجمع بين مصطلح النص والخطاب فأوردتهما مصطلحين لمفهوم شامل يغطي معنى واحدا وذلك عندما قالـــت بـــأن « الـــنص خطاب لغوي، أي نظام مـــن العلامـــات (دال)، وبالتـــالي مفـــارق لواقعـــه المرجعي، الذي قد لا يكون موجودا»[25]، هادفة بذلك لجعل الخطاب بنيـــة تتجرد من أي محتوى يجعله سليل واقع وحيد. وتعريفا يصادق عليه الجميع، وهذا ليس بعيدا عما طرحه م"حمد معتصم" في كتابه الرؤية الفجائعية يعرّف الخطاب بأنه « صـــيغة خارجيـــة، ناظمـــة للمحتـــوى المـــوزع والمتشعب» [26].

وعليه لقد أكّد البحث أكثر من مرة في مجال التحليل وخاصة الخطاب أن الصيغة الخارجية لا تتحقق في غياب المحتوى الذي هو « الكلام الأدبي كونه يتعلق بقطاع محدود من الكلام، فيحقق جنسا خاصا»[27]، وهذا الأخير يتطلب صيغة عامة. إذ يرى معظم الباحثين أن هذه الصيغة العامة هي صيغة ذهنية تحوي العديد من المفاهيم والبيانات، إن الخطاب حسب ما سبق، يجمع نسيج المعطى سواء لغوي أو إشاري ليضمنه قالبا مجردا يحوي النصوص على اختلافها، وتعددها.

وبعيدا عن هذه التعاريف يأتي تعريف "إبراهيم صحراوي" ليحدد الخطاب بأنه « كل مجموع له، معنى لغوي شفهي، كان أم كتابيا».[28] مؤكدا في استجابة آلية أن الخطاب لا يرتبط بالمشافهة فحسب بل يرتبط بالكتابة، لأنها تجسيد لما يقال شفاهة.

أما "محمد عابد الجابري" فجعل تعريفه للخطاب بالنظر إلى عنصر توخي الحجة واعتماد الصيغة اللفظية سواء كان الخطاب شفاهة أو كتابة فقال بأن الخطاب« هو عبارة عن نوع من القول تجتمع فنية الصنعة اللفظية والحجة المقنعة، مع عدم الإثقال على السامع».[29]

وما يمكن أن نخلص إليه من هذه التعاريف أن البحث في الخطاب مسعى جد العمل فيه، وأخذ اهتمام الباحثين فقدموا أسمى المفاهيم رغم تباينها. ففريق عرف الخطاب تعريفا وظيفيا، يحقق مقصدية أرادها المخاطب. وفريق ثان عرف الخطاب تعريفا شكليا، على أنه بنية مجردة ذهنية، أكبر من النص والجملة، تعتمد على عناصر اتساق وانسجام وترابط بين وحدات صغرى.

أما الفريق الثالث فقد أخذ الخطاب بنظرة تداولية، يحقق حدثا ملموسا سواء كان الخطاب شفهيا أم كتابيا. وبين هذه الفرق الثلاث، نرجّح تعريف "أحمد المتوكل" القائل بأن:« الخطاب يوحي أكثر من مصطلح النص، بأن

المقصود ليس مجرد سلسلة لفظية تحكمها مستويات داخلية (صوتية، صرفية، نحوية، تركيبية، دلالية) بل كل انتاج لغوي ترابطت فيه البنية الداخلية، والإحالات المقامية»[30]، لكن هذا لا ينفي أن النص يمثل الدلالة، وأساسا للانطلاق والاهتمام بجوانب أخرى« تتجاوز الراوي إلى الكاتب، المروي له إلى القارئ، والبنيات السردية إلى الدلالية، وصيغ الخطاب إلى بنيات النص».[31]

ولعل أهم ما يقال في الخلط بين مفهومي النص والخطاب، الأخذ بذلك التوحيد الذي عمد إليه محمد خطابي في كتابه " لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب " بأن كلا من المصطلحين« مسمى لشيء واحد، وبناء عليه يصبح النص الخطاب، متتالية من الجمل»[32] تتطلب صيغة تشكيلية معنية. إلا أن هذه المتتالية من الجمل« تعتبر متتالية متماسكة دلاليا عندما تقبل كل جملة فيها التفسير في خط داخلي بالنسبة لتفسير غيرها من الجمل التي سبقتها».[33]

وما يجدر بنا القول بعد هذا أن الخطاب له قدرة خارقة على أشكال قرائية جديدة، تستمر لتفك أسرار المفهوم، وعليه لا يمكننا أن ننظر للخطاب في مباشرته وبداهته، بل ننظر إليه « كخطاب معمى وغامض، وكخطاب عائق يعرقل عملية التواصل ويعمل على تعقيدها».[34] فعلى الباحث أن يدرك هذه المغيبات، ويستخرج كنوزها، ويفتح مغاليقها، ليبحث عن خفايا الأمور ودقائق الحكم الصحيح، ويتحقق هذا الحكم كاستجابة تستجلي الخطاب كتابة أم شفاهة.

ويمكن أن نجمل هذا القول في هذه الصنافة:

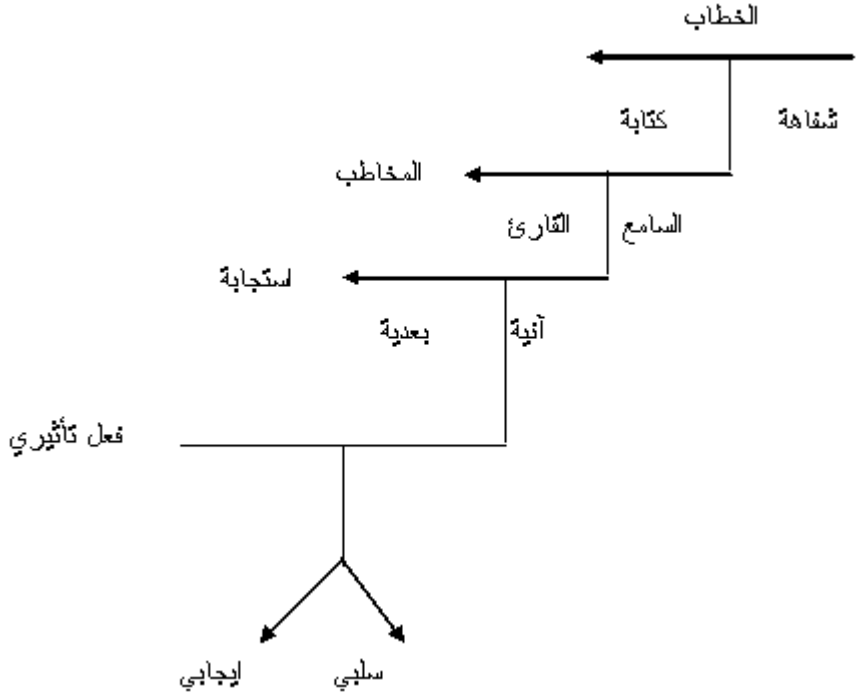

الخطاب عند الغرب:

بعدما شهد مصطلح" الخطاب " حالة مد وجزر عند العرب، ليس بأفضل حال هاهنا، إن المتتبع للوعي الغربي لمفهوم الخطاب، يرى أنه قد تعددت دلالته، تبعا لتعدد زوايا النظر إليه، ومجالات تناوله وتحليله.

إذ شهدت الساحة النقدية واللسانية الغربية العديد من المفاهيم والتعاريف لمصطلح الخطاب. لعل أبرزها تعريف "زيلنج هاريسZelling Harris ". إذ يعتبر الخطاب: « متتالية من الجمل، تكون مجموعة متعلقة، يمكن من خلالها، معاينة بنية سلسلة من العناصر، بواسطة المنهجية التوزيعية ، وبشكل يجعلنا في مجال لساني محض»[35] إذ يعد « الدرس اللساني الحاضن الشرعي الأول لمصطلح الخطاب في صورته الحديثة»[36].

يتقدم "زيلنج هاريس Zelling Harris " على رأس الباحثين الغربيين في تقديم هذا التعريف للخطاب الذي سبقه يؤكد عليها "صبحي إبراهيم الفقي" فيقول:« في الوقت الذي اهتم العالم بالبنية الصغرى أي الجملة، جاءت مدونة

"زيلينج هاريس Zelling Harris "– الموسومة بـــ " تحليـل الخطـاب " Discourse analysis " عـــام 1952 فـــاهتم بـــالروابط والســـياق الاجتماعي»[37]، نجد أن "هاريس" يجعل من الخطاب سلسلة تندرج ضـمن انتظام معين، يتخيره المخاطب وفقا لسياق اجتماعي يدركه المخاطب. وهـو تعريف قريب لما أورده "جيرار جنيت" عندما قال بأن الخطاب:« آلة بصرية يقدمها المؤلف للقارئ، ويفترض وجود متلق»[38] يحيط الخطاب بمرجعياته السياقية.

أما "فان دايك" فيعرف الخطاب بأنه: « بناء نظري تحتي، مجـرد، لمـا يسمى عادة خطابا».[39] وهو تعريف يكاد يجزمه "تودوروف" عند وصـف الخطاب بأنه تلك « البنية المجردة التي تنطوي عليها العملية الأدبيـة، مـن حيث هو نسق كلي يتجاوز النصوص المفردة، ويستوعبها في آن واحد».[40] نرى أن "تودوروف "يركز في تعريفه للخطاب، من حيث مقوماته التي تشكل بنية مجردة، ينطوي ضمنها الأثر الأدبي، وسانده في هذا التعريف "ميشـال فوكو" عندما أراد أن يضبط تعريفا للخطاب فقال:« بدلا من أن أضيق مـن المعنى الفضفاض والواسع للفظة " خطاب " أعتقد أنني ضاعفت وأكثرت من معانيه بوصفه عملية إنتاج ذهني، ويعني أحيانا الميـدان العـام، كمجمـوع العبارات»[41] التي تحوي الكثير من المعاني التي أرادها المتكلم.

أما ما راح إليه "إميل بنفينيست Emile- Benveniste" فهو مختلف تمامـا عما سبقه من التعاريف إذ يعتبر الخطاب يساوي الجملة انطلاقـا مـن أن« الجملة التي هي صنع غير محدد من التنوع اللامحدود، هي جـوهر حيـاة الكلام الآدمـي أثنـاء الفعـل».[42]، يعتبـر "إميـل بنفينيسـت Emile- Benveniste ". بأن الجملة هي وحدة الخطاب، ويتوقـف عنـد الملفـوظ بوصفه الموضوع اللغوي المنجز، والمستقل عن الذات، التي أنجزته إذ يرى بأن الخطاب ذلك« الملفوظ منظورا إليه، من زاوية اشتغاله في التواصـل أو

اعتباره تلفظ يفترض متكلما أو مستمعا، وهدف الأول التأثير على الثاني بطريقة ما».[43]

إن هذا التعريف أضاف إلى مفهوم الخطاب " المقصدية " ، باعتباره يشغل وظيفة إجرائية يتوخاها المخاطب، وهو ما راح إليه معظم الباحثين في أن أصل الخطاب فعل إجرائي يتم بين المتكلم أي المخاطب والمستمع أي المخاطب لتتحدد غايته بعد ذلك.

وقد أورد "الدكتور محمد العمري "تعريفا "لشوبنهور Shopenhouer "مجد فيه الكثير من المعطيات التي تؤكد تفاعل أطراف الصيغة الخطابية إذ يرى بأنه:« ملكة جعل الآخرين، يشاركوننا آراءنا وطريقة تفكيرنا في شيء ما، وكذلك إيصال عواطفنا الخاصة إليهم، وجماع القول أن نجعلهم يتعاطفون معنا، ويجب أن نصل إلى هذه النتيجة بغرس أفكارنا في أذهانهم بواسطة الكلمات، وذلك بقوة تجعل أفكارهم الخاصة، تنصرف من اتجاهها الأولي لتتبع أفكارنا التي تقودنا في مسارها».[44] يشير هذا التعريف كذلك إلى أن الخطاب ضرورة تلتمس إقناع المخاطب وجعله ينساق وراء الأثر بكل فطرة، ويستجيب لأفكاره لا محاله، فالإقناع شرط عرفه اليونان قديما وساهموا في تقنينه، فهذا "أرسطو" يشترط في الخطاب الإقناع بقوله:« الريطورية قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد»[45] ما يريد المخاطب تحقيقه. ويقسم أرسطو هذه البراهين والتي يجدها تندرج ضمن أصول الإقناع إلى ما يلي:

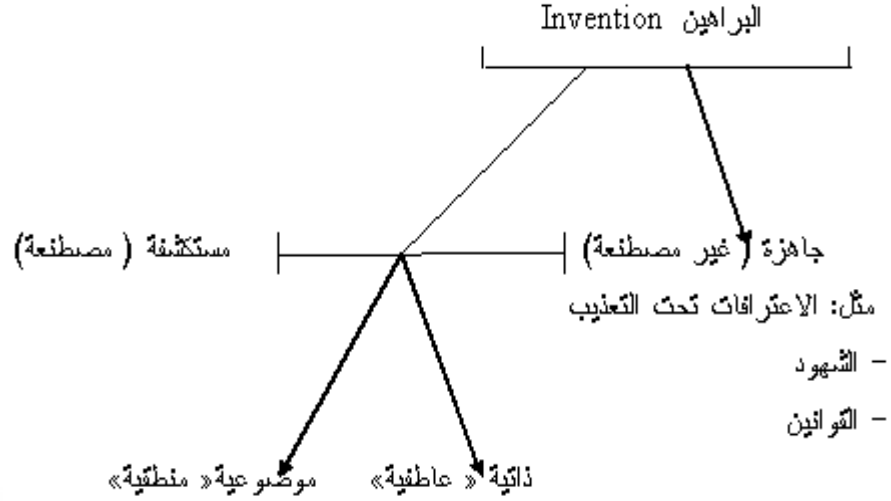

و

على الخطيب حسب هذه الصّنافة الأريسيطية أن يتخير الـــدليل أو البرهـــان ليقنع بخطابه من يريد إقناعه. أما الخطاب عند " بروب " فهو يرتبط كـــذلك ببنية ظاهرية وهو ما نال إعجاب "جوزيف كورتيس" وقرر أن يتبنّاه بوصفه تعريفا في كتابه " مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية " .والذي مفادهـــا أن الخطاب « تتابع الواحد تلو الآخر، أثنـــاء المظهـــر الخطـــي للسردية في شكل خطاب» [46].

إذا كان "جوزيف كورتيس" قد استأنس تعريف "بروب" للخطاب فإن "محمد القاضي" يؤثر تعريف "شلوفسكي"لأنه يهتم بالخطاب « لكونه ذلـــك البنـــاء الجمالي»[47] للأثر أي أنه ينظر إليه بمنظار شكلي.

وبناء ما سبق ذكره من التعريفات نجد أنها تشير إلى أن الخطاب مجمـــل القوالب الشكلية بغض النظر عما تكتنفه هذه القوالب مـــن مقاصـــد، إلا أن المخاطب يفترض وجود سياق خارجي يعول عليه المخاطب في تفسير الأثر.

إن هذه " المقصدية" ضرورة أشار إليها "روجيه جارودي" بأن الخطاب « يحولنا من دراسة المعلوم إلى دراسة المجهول، ومن البنية الســـطحية إلـــى البنية العميقة، ونهدف بهذا، إلى الكشف عن البنية اللاواعية المضمرة في كل

مؤسسة».[48] كتابية كانت أم شفاهية.

إن انتفاء المقصدية في الخطاب، قد تقضي كل ذات قائلة، باعتبار الخطاب، ظاهرة لغوية في حضورها العيني المباشر وما وراءها من أنساق فكرية أو إيديولوجية هي التي تنتجها وتساهم في إعادة إنتاجها، لتتطلع إلى قراءات الآلاف.

أما عن "قريماس" فقد تفرّد له "عبد الملك مرتاض" بالنقد لما لمحه منه من انزياح في المساواة بين الخطاب والنص وعدم قدرته على التفريق بين المصطلحين مشيرا في ذلك إلى ضرورة تبّين أوجه المفارقة بين المفهومين وذلك كون الاختلاف يكمن في عدّ « الخطاب هو النص الكامل المتكامل المنجز، أي النص المهيأ للطبع والقراءة»[49] وقبل أن تعترف الطباعة والقراءة بانجازه كان « بنية سطحية خطية أكثر إدراكا ومعاينة».[50]

لقد راح مفهوم الخطاب يغترف من البحوث الغربية فشهد المصطلح تطورا كبيرا ونستحضر لتبين هذه الأوجه كل من "نان ريبو Nane Re Bou " و"جاك ميشال JacQues Moeschele"، إلى الخطاب نظرة براغماتية نفعية على أنه: « تلك المنظومة اللسانية، التي تعمل على تفسير المبهم، باعتباره، متوالية جملية تتطلع إلى تفسير، باعتبار الخطاب، ذلك التركيب اللساني بين الجمل متشكلة في وحدة لسانية».[51] لم يتوقف مفهوم الخطاب عند هذه التوليفة البراغماتية بل شهد مفاهيم إجرائية ولعل هذا ما أراده أن يبرزه "هرمان باري" كونه يعتبر الخطاب « فعل الإنتاج الكلامي، ونتيجته الملموسة، المرئية أو المسموعة»[52]. ليتبين لنا في آخر هذه التعاريف أن الخطاب ليس سوى تمظهر سطحي لبناء تحتي.

وما نخلص اليه بين ثنايا هذا الطرح لاستجلاب مفهوم الخطاب بين ثنايا الاجتهاد العربي والغربي تشاكل الاطار لرسم صورة نهائية تثبت التقاطع الذي لا يتوانى مرة في تذكير الباحث بأن « الخطاب في حد ذاته

مشكلة»[53].على حدّ قول "سعيد يقطين"، إن إشكالية التفريق بين " النص" و" الخطاب " قضية شاعت شيوعا منقطع النظير في الكتابات العالمية، فنـــذرت هذه الكتب صفحاتها لتقف عند هذا الخلط الذي يجمع بين " الـــنص " و" الخطاب " فيتقاربان إلى درجة التماهي أحيانا، ويتنافران حتى ينتقل كـــل واحد بمدلوله الخاص أحيانا أخرى.

هي إشكالية كانت السبب لإعطاء البحث الحـــق فـــي مشـــروعية إعـــادة طرحها، لما نشأ بين المفهومين من علاقات، تمخضـــت عنهـــا اختلافـــات متباينة. يتضح أن معظم الباحثين أبدوا في الآونة الأخيـــرة اهتمامـــا بالغـــا بالنص والخطاب والتمييز بينهما. فمنهم من ذهب في تمييزه بين المصطلحين إلى مقياس الأسبقية فهذا الكتاب "مولاي علي بوخاتم" الذي ارتضـــى خيـــار "محمد مفتاح" رأيا صائبا حيث يعتبر« النص هو الأعرق والأقدم، روجت له الكثير من الدراسات القديمة، وعرف تعريفات عديدة تعكس توجهات معرفية ونظريات اجتماعية، أدبية، نفسية ودلالية».[54] ومنهم مـــن يعمـــد الجانـــب التداولي أساسا لتمييز بين المصطلحين فيربط الخطاب بالمشـــافهة والـــنص بالكتابة، إذ يجعلون الخطاب فعلا كلاميا موجها إلى الغير، يعتمد الآنية، أما النص فهو تحقق حرفي لهذا الفعل الكلامي يعتمد البعدية، ولعل أبرز الـــذين اتخذوا هذا المقياس التمييزي "ميشال فوكو" الذي يرى بأن: « الخطاب يتشكل من وحدات هي " المنطوقات" وهي تشكيلات خطابية، تتمحور دائما في حقل خطابي معين، تحكمها قوانين التكوين والتحويل»[55] وهـــو مقيـــاس ارتـــآه "ميخائيل باختين" فرقا، كما أكد لنا عبد الواسع الحميري في قولـــه:« فلـــيس التواصل اللفظي المباشر الشفاهي بين شخصين بل التفاعل اللفظـــي الـــذي يحدث في شكل تبادل بين الملفوظات» [56]، على أساس التلفظ أو المشافهة. في حين نجد أن " رومان جاكبســـون R. JAKOBSON " يأخـــذ بـــنفس المقياس للتفريق بين النص والخطاب ونقصد بالذكر« المشافهة والكتابة».

وهذا المقياس تجسد لنا عندما أورد "محمد القاضي" في كتابه " تحليل الخطاب السردي تساؤل "رومان جاكبسون R. JAKOBSON" الذي مفاده « ما الذي يجعل من رسالة كلامية عملا فنيا»[57]. وهنا إحالة من الرجل كون الخطابة رسالة كلامية ومن ثم شفاهية.

لم يتوقف هذا المقياس عند "ميخائيل باختين" و"رومان جاكبسون" فحسب بل كذلك "ديفيد كريستال" إذ يرى بأن الخطاب Discourse : « يرتبط باللغة المنطوقة بينما النص Text يرتبط باللغة المكتوبة»[58] لكنه أكد أن الخطاب مهما تعددت مسمياته فإن الأهم هو وظيفته التواصلية.

إن التمييز بين الخطاب والنص لم ينف إجماع تلك النخبة العلمية، التي راحت تساوي بين المصطلحين وتقلع عما أوردته من تمايز بينهما. ولعل من بينهم "رومان جاكبسون" إذ يعتبر النص خطابا أدبيا أما "جيرار جنيت" و"تودوروف" فإنهما لا يميزان بين النص والخطاب ويستعملانهما بنفس الدلالة، وهذا ما ألفيناه كذلك عند عابد الجابري عندما ساق الحديث عن الخطاب في كتابه الموسوم بـ« تحليل الخطاب العربي المعاصر». فأدرج المصطلحين (النص- الخطاب) ضمن مفهوم واحد.

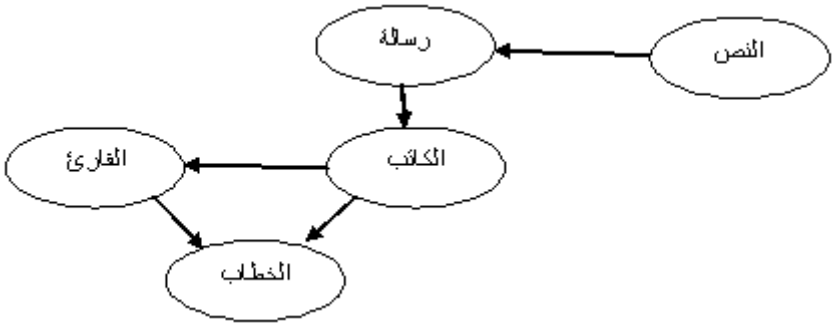

أما "قريماس" فيرجع تماما عما قاله من فرق ميز به بين المصطلحين ليقر بأن تداخلا قد لمس هذين المفهومين وينتهي في الأخير بأن « كلمة نص غالبا ما تأتي مرادفة لكلمة خطاب»[59]، وهذا رأي أخذ به "تودوروف" عندما

جعل النص مرادفا للخطاب، وقد أشار إلى هذا "محمد القاضي" في كتابه الموسوم بـ " تحليل النص السردي " بأن « مقومات النص من حيث هو خطاب يقودنا إلى استخلاص البنية الأدبية للأثر، ولابد لنا من الوصل بين نظام النص والحياة»[60] ، وعلى رأس "محمد عابد الجابري" و"تودوروف" يأتي رأي آخر يجمع بين النص والخطاب على أساس الزمنية الخطية بحيث تتساوى زمنية الخطاب مع زمنية النص وهو ما أورده "محمد القاضي" حيث اعتبر« حد الخطاب أنه ملفوظ يتم في مقام هو مقام التلفظ -Situation d'enonciation) ويترتب على هذا، أن الخطاب يدل في آن واحد على عملية إنتاج الكلام وعلى نتيجتها الملموسة عن طريق السماع أو القراءة، فالنص من هذه الناحية نتاج (Produit) له قوانين».[61] يعتمدها المخاطب في أداء خطاب ما .

والذي يجدر بنا قوله، بين هذه المفاهيم والتحديدات، والاختلافات والتقاربات القول إن الخطاب والنص مهما تنازعتهما صيغ التقارب، والتباعد، أو التطابق فإنهما يصوغان نمطا سرديا ينقل إلى متلق قارئ أو سامع. ليبقى المصطلح وان تعددت مفاهيمه دالا مفتوح الدلالة، مهيئا لاستقبال التحديدات. مثله مثل ذلك البركان الذي تكونت مادته الخام من ترسبات سابقة، لكنها تماسكت، وشكلت كينونة طارئة تقاوم أي ضعف.

وعليه فإن الخطاب والنص« بنية ذهنية مجردة تتجسد تجسيدا فعليا». هكذا سعى الخطاب في نوعه القصصي جاهدا، اختراق نواميس العالم، ليشكل لنا دلالات، تستوعب المرجعيات والرؤى فتمحو الفواصل، وترفع الذات القارئة إلى عالم ينبض حيوية دلالية.

أنواع الخطابات:

يظهر الخطاب في شكل لغوي، ولاشك أن هذا الشكل تربطه علاقة بالمعنى الذي يتوخاه صاحبه، مما يلزم عنه الربط بين قصده والنوع الخطابي

الذي يصوغ الخطاب من خلاله. لأن في هذا المقام التخاطبي لا يمكن للمرسل أن ينتج خطابه عبثا وإنما بغية تحقيق هدف معين يتضمنه الخطاب، وفق وضع ذي طبيعة متعارف عليها بين قطبي التواصل.

ولهذا لم تجد الدراسات العربية مناصا من الاعتناء بالخطاب وإعطائه عدة مفاهيم، تحيل إلى جوهر اللفظ وكثافته الدلالية ومن ثمة تعددت أنواع الخطابات بتعدد المعارف، إلا أنه يظهر هذا التعدد في اقتران الخطاب« بوصف آخر، مثل الخطاب الثقافي، الخطاب الصوفي، والسياسي، التاريخي، والاجتماعي».[62] ويضيف إدريس بلمليح « الخطاب الصحفي، الفلسفي، الديني، الاشهاري، التشكيلي(دراسة لوحة فنية أو زربية أو دراسة الملصقات– والمسبوكات)، والخطاب السينمائي، الموسيقي»[63].

لا يتوقف إدريس عند رصف هذه الأنواع الخطابية بل يأمل بأن ينفتح الأدب على خطابات أخرى تتعلق بالظواهر الانتروبولوجية الطبيعية والثقافية المهشمة كظاهرة الوشم والطبخ والأزياء واللغة والجمال والجنس والموضة، وعلى إثر هذا المطلب أصبح الخطاب فكرة «نابعة من كلمة مكتظة بدلالات ، متعددة المشارب، دينية، ثقافية، اجتماعية، حضارية»[64]، ومما تقدم ذكره يمكن للخطاب أن يجسد أكثر المفاهيم التي تتطلب البحث أكثر والتعمق في الماهية بصفة دائمة ومتواترة.

الإحالات والهوامش:

- القرآن الكريم.

(1) – ينظر: محمد أبو زهرة، الخطابة (أصولها، تاريخها في أزهر عصورها)، دار الفكر العربية، القاهرة، ط1، 1934- 1946، ص 285.

(2) – الإمام مجد الدين محمد بن يعقوب بن محمد بن إبراهيم الفيروز أبادي: القاموس المحيط " مادة خطب "، دار الكتب العلمية ، بيروت، لبنان، ج2.

(3) – أبو الفضل جمال الدين بن منظور: لسان العرب، دار صادر ، بيـــروت، 1997، مادة " خطاب " ص276.

(4) – أبي القاسم جار الله محمود بن عمر بن أحمد الزمخشري: أساس البلاغة، تحقيـــق محمد باسل سود العيون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ج1، 1998" خطـــب" ، ص 255.

(5) – ابن فارس :مقاييس اللغة، دار إحياء التراث العربي ، مادة خطب ، ط 1، 2001، ص 304.

* الفرقان 63.

* النبأ 37.

* ص 20.

(6) - Le Larousse, Edition, Mise A jour , France, mai 2003 p 247.

(7) – العباس عبد وش وراوية يحياوي: التجريب في الخطـــاب الروائـــي المغربـــي « الذاكرة الموشومة» لعبد الكبير الخطيبي و" حصان نيتشـــه " لعبـــد الفتـــاح كيلوطـــو، أنموذجين، دورية، الخطاب، منشورات مخبر تحليل الخطاب، جامعة مولـــود معمـــري، تيزي وزو، ع4، جانفي، 2009، ص 215.

(8) – عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعية، اعـــادة المركزية الجزائر، ط1، 1995، ص 262.

(9) – ابن عثمان عمر بن بحر الجاحظ: البيان والتبين، تحقيق عبد السلام هـــارون، دار الجيل، بيروت، ج1، ص 137- 138.

(10) – عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، دار القلم، بيروت، ط6، 1976م، ص 1604.

(11) – أبو حامد الغزالي: إحياء علوم الدين، تحقيق الإمام حافظ العراقي، دار الثقافـــة، الجزائر، ط1، ج3، 1991، ص 255.

(12) – مولاي علي بوخاتم: الدرس السيميائي (دراسة وصـــفية نقديـــة إحصـــائية فـــي نموذجي عبد الملك مرتاض ومحمد مفتاح)، ديوان المطبوعات الجامعية، بـــن عكنـــون، الجزائر، 2005، ص 141.

(13) – عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ص 261.

(14) – المرجع السابق، ص263.

(15) – ينظر: رشيد بن مالك، مقدمة في السيمائية السردية، دار القصبة، الجزائـــر، ط1، 2000، ص 17.

(16) – مدحت الجبار: النص من منظور اجتماعي، دار الوفاء، الإسكندرية، 2001، ص 55.

(17) – جوزيف كورتيس: مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2007، ص 160.

(18) - http:// www- abdala. Ibralrime, com/ page 2271 htm (on line).

(19) – عبد المجيد نوسي: التحليل السيميائي للخطاب الروائـــي، الـــدار البيضـــاء، ط1، 2002، ص 26.

(20) – العباس عبدوش وراوية يحياوي: التجريب في الخطاب الروائي، ص 215.

(21) – سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي،ص 07.

(22) – محمد القاضي: تحليل النص السردي، ص 39.

(23) – عبد الواسع الحميري: ما الخطاب ؟ وكيف نحلله؟ المؤسسة الجامعية مجد للنشر- بيروت لبنان، ط1 2009، ص 09.

(24) – حميد لحميداني: بنية النص السردي، الدار البيضاء، المغـــرب، ط3، 2000، ص 55.

(25) – يمنى العيد: فن الرواية العربية (بين خصوصية الحكاية وتميز الخطـــاب)، دار الآداب، بيروت ، لبنان، ط1، 1998، ص25.

(26) – محمد معتصم: الرؤية الفجائعية (الأدب العربي في ناهية القرن وبدايـــة الألفيـــة الثالثة) منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005، ص 121.

(27) – عبد الواسع الجميري: في آفاق الكلام وتكلم النص. المؤسسة الجامعيـــة، مجـــد، بيروت، 2008، ص 01.

(28) – إبراهيم صحراوي: السرد العربي القديم، منشورات الاخـــتلاف، الجزائـــر، ط1، 2008، ص 05.

(29) – محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، المركز الثقافي، بيـــروت، ط1، 1986، ص 25.

(30) – أحمد المتوكل: قضايا اللغة العربية في اللسانيات الوظيفية(بنيـــة الخطـــاب مـــن الجملة إلى النص)، دار الأمان، الرباط، المغرب، ط1، 2003، ص 16- 17.

(31) – سعيد يقطين: من النص المترابط ، مجلة عالم الفكر ، م32، أكتـــوبر، ديســـمبر، ع2، 2003، ص 76.

(32) – محمد خطابي: لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1991، ص 13.

(33) – صلاح فضل: بلاغة الخطاب وعلم النص، عالم المعرفة، الكويت، ص 237.

(34) - Ben Salahe Bachire- Kayder Salime : Quel Ques Re Flescions Sur les Sicens Culturels. P 483.

(35) – نقلا عن: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، المركز الثقـــافي العربـــي، ط1، 1989، ص 17.

(36) – نضال الشمالي: الرواية والتاريخ، عالم الكتـــب الحـــديث، إربـــد، الأردن، ط1، 2006، ص 17.

(37) – صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، دار قباء، القاهرة، ط1، 2000، ص 23.

(38) – جيرار جنيت: خطاب الحكاية، (بحث في المنهج)، ترجمة، محمد معتصم، عبـــد الجليل الآزدي، عمر حلى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط2، 1997، ص 269.

(39) – فان دايك: النص والسياق، ترجمة، عبد القادر قنيني، إفريقيا- الشرق– المغرب، ط1، 2000، ص 29.

(40) – عبد الواسع الحميري: الخطاب والنص، المؤسسة الجامعية، بيروت، لبنان، ط1، 2008، ص 99.

(41) – ميشال فوكو: حفريات المعرفة، ترجمة سالم ياقوت، المركز الثقـــافي العربـــي، بيروت، 1987، ص 76.

(42) – نضال الشمالي: الرواية والتاريخ، ص21.

(43) – ينظر : سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 18.

(44) – محمد العمري: في بلاغة الخطاب الاقناعي (مدخل نظري تطبيقـــي) ، أفريقيـــا الشرق، الدار البيضاء المغرب، ط2، 2002، ص 13.

(45) – أرسطو طاليس: الخطابة ، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط1، 1976.

(46) – جوزيف كورتيس: مدخل إلى السيمائية السردية والخطابية، ترجمة جمال حضري، منشورات الاختلاف، العاصمة، ط1، الجزائر، ط1، 2007، ص 21.

(47) – محمد القاضي: تحليل النص السردي، ص 43.

(48) – ينظر: روجيه جارودي: البنيوية فلسفة موت الإنسان، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، ط3، 1985، ص 32.

(49) – عبد الملك مرتاض: تحليل الخطاب السردي، ص 262.

(50) – سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص 43.

(51) - Nane Re Bou et JacQues Moeschele , pragmatique du discours, Ed A Ramand colin, paris, France, 1998 p 07- 14.

(52) – عبد الواسع الحميري: الخطاب والنص، ص 128.

(53) – سعيد يقطين: تحليل الخطاب الروائي، ص 16.

(54) – مولاي علي بوخاتم: الدرس السميائي المغاربي، ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون– الجزائر، 2005، ص 155.

(55) – عبد الواسع الحميري: الخطاب والنص، ص 104.

(56) – المرجع نفسه، ص 103.

(57) – محمد القاضي: تحليل الخطاب السردي، ص 31.

(58) – ينظر: صبحي إبراهيم الفقي: علم اللغة النصي بين النظرية والتطبيق، ص 35.

(59) - http: les formes de la communication, html, php/1.

(60) – محمد القاضي: تحليل النص السردي، ص 49.

(61) - ينظر: المرجع السابق، ص 67.

(62) – عبد الهادي بن ظافر الشهري: إستراتيجية الخطاب(مقاربة لغوية تداولية)، دار الكتب الجديدة– بنغازي- ليبيا، ط1، 2004، ص 34.

(63) – إدريس بلمليح: الرؤية البيانية عند الجاحظ، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط1، 1984، ص 24.

(64) – نضال الشمالي: الرواية والتاريخ، ص 63.